أستاذي الدكتور محمد محده كما عرفته[*]

بقلم: أ.د. مسعود فلوسي

علم غزير، ثقافة فقهية وقانونية واسعة، تواضع جم، نشاط دائب، حيوية دائمة، همة عالية.. هذه الصفات وغيرها هي ما عرفناه وعرفنا به أستاذنا الجليل وفقيدنا العزيز الأستاذ الشيخ الدكتور محمد محدة تغمده الله برحمته الواسعة وبوأه مقعد صدق في الجنة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا.

عرفتُ الدكتور محمد محدة أول مرة من خلال كتبه التي كانت قد نشرت في الثمانينيات من القرن الماضي، أيام كنت تلميذا في المرحلة الثانوية، حيث قرأت كتابه (مختصر علم أصول الفقه)، وكتابه (التركات والمواريث) في طبعته الأولى، إذ كنت أزاول دراستي الثانوية في شعبة العلوم الإسلامية. ثم أتيح لي الاتصال المباشر بالأستاذ، حين أكرمنا الله عز وجل بتدريسه لنا مادة المواريث، في السنة الرابعة، خلال السنة الجامعية (1990 - 1991) بمعهد الشريعة باتنة، الذي أصبح

---

[*] ـ مقال منشور ضمن كتاب (أضواء من سيرة العلامة الدكتور محمد محدة السوفي الجزائري)، جمع وتحرير وتقديم: إبراهيم رحماني، دار سامي، الوادي، ط1، 2018م، الصفحات: 135-140.

بعد ذلك المعهد الوطني للتعليم العالي للعلوم الإسلامية، ثم صار كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية، والتي تحمل اليوم اسم كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم الإسلامية.

كان أستاذنا الجليل الشيخ الدكتور الطاهر حليس - رحمه الله -، مدير المعهد حينئذ، قد اتصل بالدكتور محمد محدة لتغطية مقياس المواريث لطلبة الدفعة الأولى للمعهد، والذين كانوا قد بلغوا سنتهم الرابعة، وهي سنة التخرج.. لم يتردد الدكتور محمد محدة في الاستجابة للطلب، وكان يأتي إلينا كل أسبوع من جامعة قسنطينة التي كان يُدَرِّسُ حينئذ بمعهد الحقوق فيها، وكان يلقي علينا محاضرة نظرية جامعة ثم ينفرد بكل فوج في دروس تطبيقية.

كان أول ما لفت انتباهنا نحن الطلبة، حينئذ؛ غزارة علم الرجل وحفظه الشامل لمسائل المواريث واستحضاره لها دون أدنى جهد أو مشقة أو حرج، وكان يلقي علينا محاضراته واقفا مدة ساعتين كاملتين، ويكتب خلاصات المسائل على السبورة التي كانت تمتلئ عن آخرها لمرتين أو ثلاثا في كل محاضرة، وكنا نكتب دروسنا من خلالها مباشرة.

في تلك السنة أصدرت دار الشهاب بباتنة طبعة جديدة منقحة وموسعة للجزء النظري من كتاب (التركات والمواريث)

للدكتور محدة، كما أصدرت جزءا ثانيا للكتاب تضمن العديد من المسائل المتعلقة بالجانب التطبيقي، وقد سَعِدْنا باقتناء الجزئين معا، وكنا نراجع دروسنا من خلال ما كتبناه في أثناء المحاضرة ونستكمل ما لم نتمكن من كتابته، من خلال الكتابين.

لقد كانت سعادتنا غامرة بأن كان الدكتور محمد محدة أستاذنا في مادة المواريث، وقد كان لمعاملته السمحة وروحه المرحة وتواضعه الجم وعلمه الغزير أثر كبير في توثق علاقتنا به، إذ صرنا نحبه حبا جما وننتظر بفارغ الصبر أن يصل اليوم الذي يأتي لتدريسنا فيه، كما أن كثيرا من زملائنا الطلبة توجهوا لدراسة المادة بشغف وتعمق حتى برعوا فيها وصاروا يحلون المسائل المعقدة بسهولة بالغة.

في خلال تلك السنة، حصل أستاذنا الجليل على شهادة الدكتوراه في الحقوق من جامعة قسنطينة، وعلمنا نحن الطلبة بذلك، فكان أن زادت مكانة أستاذنا في نفوسنا وصار لنا مثلا يُحتذى في علوّ الهمة ودوام التحصيل والحرص على الترقّي في مدراج العلم ومراتب المعرفة.

انتهت السنة الجامعية (1990-1991)، وتخرجنا حاملين شهادات الليسانس في العلوم الإسلامية.. وكما أكرمني الله عز وجل بأن كنت من طلاب الدفعة الأولى في مرحلة

الليسانس، فقد أكرمني سبحانه وتعالى مرة أخرى إذ وفقني للنجاح في مسابقة الماجستير. إلا أن ما حزَّ في أنفسنا ألا يكون الدكتور محدة أحد الأساتذة الذين تولوا تدريسنا خلال المرحلة النظرية، وذلك لكثرة أشغاله وتنقله الدائم بين قسنطينة والوادي، إضافة إلى استمراره في تدريس مادة المواريث لطلبة السنة الرابعة في معهدنا بباتنة.

وقد تَجَدَّدَ عهدي بعد ذلك بأستاذنا الدكتور محمد محدة حين اختاره المجلس العلمي للمعهد الوطني للتعليم العالي للعلوم الإسلامية بباتنة، ليكون رئيسا للجنة مناقشة رسالتي في الماجستير عن (مدرسة المتكلمين ومنهجها في دراسة القواعد الأصولية)، إلى جانب المشرف الدكتور يوسف حسين أحمد، وعضوية كل من الدكتور عدنان محمد جمعة والدكتور إسماعيل يحيى رضوان، وقد نوقشت الرسالة مساء يوم الأربعاء 5 محرم 1415هـ، الموافق لـ: 15 جوان 1994 في حفل علمي كبير حضره المئات من الأساتذة والطلبة وأعيان مدينة باتنة.

في أثناء المناقشة قدَّم لي أستاذنا الدكتور محدة توجيهات قيمة ونصائح سديدة، وشَدَّدَ عليَّ في المناقشة بعض الشيء، إلا أن ذلك لم يمنعه من أن يمنحني هو وزملاؤه أعضاء اللجنة درجة الماجستير بتقدير مشرف جدا.

وقد توثقت علاقتي بالدكتور محدة بعد ذلك، وصرت ألتقي به كلما جاء إلى كليتنا لمناقشة رسالة من الرسائل التي يعدها طلبة الكلية لنيل درجة الماجستير.. وقد تشرفت بالجلوس إلى جانب أستاذي يوم مناقشة رسالة دكتوراه الدولة التي أعدها زميلنا العزيز الأستاذ عبد الكريم حامدي تحت إشراف الدكتور محدة، وتمت مناقشتها في القاعة الكبرى بجامعة الأمير عبد القادر بقسنطينة يوم الخميس 21 ربيع الثاني 1425هـ، الموافق لـ: 10 جوان 2004، فقد كنت أحد الأساتذة أعضاء لجنة المناقشة إلى جانب كل من الأستاذ الدكتور سعيد فكرة (رئيس اللجنة) والدكتور بلقاسم شتوان والدكتور كمال لدرع.

وقد التقيت مرة أخرى بالدكتور محمد محدة بمناسبة تنظيم كلية الحقوق بباتنة لملتقى دولي حول (النظام الأسري وحقوق الإنسان)، حيث ألقى محاضرة قيمة نالت إعجاب الحاضرين.

ولم ألتق بعد ذلك بأستاذنا الكبير حتى قرأت في جريدة (الخبر) النبأ الفاجع بانتقاله إلى الرفيق الأعلى.

تلك إلمامة موجزة عن علاقتي الشخصية بأستاذنا الجليل وفقيدنا العزيز الأستاذ الدكتور محمد محدة عليه رحمة الله ورضوانه.

ختاما، إذا كان لنا من عزاء في فقدان أستاذنا الغالي

الدكتور محمد محدة، فهو هؤلاء الإطارات العلمية العالية المستوى التي صارت تتبوأ أعلى المراكز في كليات العلوم الإسلامية وكليات الحقوق في مختلف جامعات الوطن، والذين يدينون للدكتور محدة بما حصلوه من علم وما وصلوا إليه من مستويات، والذين -لا شك- سيواصلون مسيرة أستاذهم في التكوين العلمي للأجيال وتخريج إطارات علمية أخرى يحتاج إليها الوطن عامة والجامعة الجزائرية بصفة خاصة. وستبقى كل من جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة وكلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية بباتنة خاصة، مدينتين بالكثير الكثير لأستاذنا الجليل.

وإذا كان لنا من كلمة وفاء نقولها في حق أستاذنا الجليل - رحمه الله -، فهي أننا حقا عاجزون عن الوفاء بحقه، ولا يمكننا مهما حاولنا أن نرد الجميل الذي له في أعناقنا، ولا نملك إلا أن نسأل الله عز وجل أن يتغمده برحمته الواسعة ويسكنه فسيح الجنان، ويجعلنا من بعده خير خلف لأحسن سلف، آمين.